(مقام الكلام) في ضوء الدراسات اللغويّة الحديثة

أ.م.د هناء عبد الرضا رحيم الربيعي

جامعة البصرة/ قسم علوم القرآن والتربية الإسلاميّة

كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة

تقديم:

إنّ النظر اللغويّ الحديث يعدّ موضوع الحال أو المقام والمخاطب من المجالات الدلاليّة والمعنويّة الحديثة التي توصّل إليها علم اللغة الحديث ضمن دراسته اللغة في ضوء نتائج البحث في علم الاجتماع وعلم النفس(١)، ويعتقد عدد من الدارسين أنّ البلاغيّين من القدامى فقط كانوا يعنون بهذا الجانب، فالبحث في المقام وأحوال المخاطب يدخل ضمن اختصاص علم البلاغة. وصور المقال(Speech Event) تختلف في نظر البلاغيّين بحسب المقام(Context of Situation)، فلكلّ مقام مقال يناسبه، وهو أمر لا شكّ في مصداقيّته(٢)، ولكنّنا لا نعدم وجود إشارات وتلميحات، وأحياناً تصريحاً بأهمية المقام سواء عند اللغويّين أو النحويّين.

لقد تقدّم البلاغيّون عند اعترافهم بفكرة المقام ألف سنة تقريباً على زمانهم؛ لأنّ الاعتراف بفكرة المقام والمقال أساسين متميّزين من أسس تحليل المعنى، وهو في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة مغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة(٣)، ولا نخطيء إذا قلنا أنّ العرب درسوا المقام وأكّدوا أهميته، وحلّلوا النصوص إعتماداً عليه فسبقوا الغرب بخطوات عدّة.

يمثّل المقام حصيلة الظروف الواردة(Relevant) في الوقت الذي تمّ فيد أداء المقال، طبيعيّة كانت أو اجتماعيّة أو غير ذلك في الوقت الذي تمّ فيه المقال، وهذه المقامات الاجتماعيّة تمثّل نسيج الثقافة بمعناها الانثروبولوجي الأعمّ لا بمعناها التربويّ الأخصّ، أي أنّها من نتاج العادات والتقاليد والأعمال اليدويّة والذاكرة الشعبيّة، ولا تخضع هذه المقامات للتقعيد والضبط مثلما يخضع تقعيد الأنظمة اللغويّة، ولكنّ الباحث يستطيع أن يصل إلى أنواع منها، ويرصد ما يستعمل من المقال في كلّ مقام بحسب العادة من دون أن يدّعي ارتباط هذا المقال بما ينسب إليه من مقام بأيّ نوع من الأنواع الحتميّة؛ فالمقالات والمقامات جميعاً من عمل الإنسان، والإنسان أكثر شيء استعصاء على الضبط والتقعيد(٤).

ولأهمية المقام في الموقف الكلاميّ سنحاول أن نبيّن في هذا البحث النظرة الحديثة له في ضوء الدراسات اللغويّة الحديثة.

تخضع المفردة فيما تخضع له إلى بعدين أساسيّين يمكن في ضوئهما مجتمعين أو منفردين تحديد دلالتهما، أوّل هذين البعدين: بعد واقعيّ، ونعني به المحيط الإخباري الذي تستعمل فيه المفردة، وثانيهما: بعد سياقي، حيث ترد المفردة وقد ارتبطت بتركيب أو موقف معينيّن، معنى ذلك أنّ دلالة اللفظة مزدوجة: اجتماعيّة، ونظريّة تتجاوز الاعتباطيّة، فهي في جدل دائم قائم بين النظام الإجتماعي والنظام الإخباري(٥). وبما أنّ اللغة تمثّل وسيلة التواصل بين أبناء الأمّة الواحدة وأداة الفهم التي من خلالها يعبّر كلّ قوم عن حاجاتهم، فهي حيّز الأداء الوظيفيّ للفظ الذي ينتقل من اللامحسوس إلى المحسوس(٦)، من خلال علاقة تبادليّة تجمع بين المتكلّم(Variant)، والسامع(Auditer) لتكون اللغة الآلة(Mecanisme) أو الوسيلة التي تربط بينهما.

إنّ فهمنا لوظيفة اللغة من حيث أنّها (آلة) يتطلّب أمرين:

- أوّلهما: تأكيد أهمية (الموقف الكلاميّ) أو (المقام) الذي تباشر فيه اللغة عملها.
- ثانيهما: النظر إلى العوامل الرئيسة التي ينتظمها هذا الموقف، وهي: (المتكلّم) أو (الباثّ)، و(المستمع) أو (المستقبل)، و(الأشياء)(٧).

ولكي نحيط علماً بـ (مقام الكلام) لا بدّ لنا من بيان عناصر الموقف الكلاميّ الذي يضمّه، أو ما يسمّى بـ(الحال الكلاميّة)، ومن هذه العناصر نذكر:

- أولاً: شخصيّة المتكلّم أو السامع، وتكوينهما الثقافيّ، وانتماؤهما الاجتماعيّ، أو المهنيّ، وشخصيّات من يشهد الكلام من غير المتكلّم والسامع – إن وجدوا- وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغويّ وأثرهم: أيقتصر على الشهود أم يشاركون من آن لآخر في الكلام، والنصوص الكلاميّة التي تصدر عنهم.
- ثانياً: موضوع الخطاب، أو ما يدور حوله الكلام.
- ثالثاً: هدف النصّ الكلاميّ، وغايته المتوخّاة في المشتركين في الكلام، كالإقناع أو الإغراء، أو السخريّة أو الألم أو النقد....الخ.
- رابعاً: العوامل والظواهر الاجتماعيّة ذات العلاقة باللغة، والسلوك اللغويّ لمن يشارك في الموقف الكلاميّ، مثل: حالة الجوّ- إن كان له دخل- والوضع السياسيّ، ومكان الكلام، وجنس المتحدّثين، وكلّ ما يطرأ في أثناء الكلام ممّن يشهد الموقف الكلاميّ من إنفعال أو أيّ ضرب من ضروب الاستجابة، وكلّ ما يتعلّق بالموقف الكلاميّ أيّاً كانت درجة تعلّقه.
- خامساً: موقع الكلمات من التركيب اللغويّ، ومستوى ذلك التركيب من حيث قربه أو بعده من القواعد المقرّرة في النظام اللغويّ المعيّن(٨).

ويذهب بعض الباحثين إلى أنّ من أهمّ خصائص (سياق الحال) إظهار الدور الاجتماعيّ الذي يقوم به المتكلّم وسائر المشتركين في الموقف الكلاميّ، وبيان أهميّة مواقع الكلمات من السلسلة اللغويّة المعيّنة(٩)، وسنحاول أن نبيّن أهمية تحديد مقام الكلام وأثره في أداء المعنى من خلال دراسته في ضوء الدراسات اللغويّة الحديثة، موضّحين الآراء اللغويّة التي بيّنت الموقف الكلاميّ وركّزت عليه أو غفلت عنه فلم تذكره، وسوف نعتمد في عرض هذه المدارس الإيجاز قدر الإمكان وعرض ما يتعلّق بموضوع البحث فقط من دون إطالة.

- **المدرسة الإجتماعيّة:**

تميّزت الدراسة اللغويّة في أوربا، ولا سيّما في عصورها المتأخرة- القرن السابع عشر والثامن عشر، والتاسع عشر- بسيادة النظريّة الشاملة للغات، والتخلّص من قيود اللاتينيّة، وذلك عندما بدأ اللغويّون في البحث عن أصل اللغات الأوربيّة وفصائلها، وعندما طرحت فكرة (السنسكريتيّة) أصلاً للغات الهنديّة الأوربيّة، وابتدأت هذه المدرسة مع صدور كتاب فرانتس بوب (Franz Bopp): (نظام السنسكريتيّة الصرفيّ وعلاقاته باللغة اليونانيّة واللاتينيّة والفارسيّة والألمانيّة) سنة ١٨١٦م.

استمرّت هذه المدرسة مائة سنة، اتسمت بعمل وصفيّ متواصل تناول لغات عديدة بهدف المقارنة بينها بصورة منظّمة، عُرف في مجال هذه الدراسات كلّ من (راسك/Ramus Rask)، و(جريم/Grimm)، و(هيرمان بولم/Herman Paul)، فانصبّ اهتمامهم على لحظ القضايا اللغويّة التي تظهر علاقات القرابة بين اللغات والتي يمكنها أن تشير إلى مصدر واحد للغات التي تتشابه بينها؛ ممّا تطلّب القيام بصورة تفصيليّة بدراسات موسّعة للغات متعدّدة ومتنوّعة(١٠). ولكن هذه المرحلة أو أواخرها تميّزت بالبحث التاريخي في اللغة، وأخضعته لتحليل الظواهر اللغويّة، ونادت بأنّ اللغة ليست جهازاً عضويّاً يتطوّر بنفسه وإنّما هو نتاج جمعيّ تشترك فيه الجماعة، وأطلق الدارسون على هذه المرحلة وجماعتها اسم (التأريخيّين).

المهم في نظرة التاريخيّين أنّ اللغة نتاج جماعيّ، وأنّ الظواهر اللغويّة تدرس على أساس التطور التاريخي(Evolution) لا أساس الثبوت والاستقرار(Established System). وكان أحّد شقيّ هذه المقولة مصدراً من أهمّ المصادر في البحث اللسانيّ عند دي سوسير(De Saussure)، إذ تمسّك بالشقّ الأوّل منها، وهو النظرة الاجتماعيّة في اللغة بوصفها نتاجاً جماعيّاً لا فرديّاً(Individual and Social)، وانتقد التاريخيّين في مذهبهم المبنيّ على (تاريخيّة النظرة) و(الحركة التطوريّة)(١١).

تقوم نظرة التاريخيّين للغة في إطارين: زمانيّ ومكانيّ، وفي إطار الزمن تتطوّر اللغة عبر سيرورتها التاريخيّة وتنتقل من جيل إلى آخر، محافظة بصورة أساسيّة على صلتها الوثيقة بالمجتمع الذي يتكلّمها، بحيث تجاريه في تطوّره، وتماشي حاجاته المتزايدة والمتغيّرة حيناً بعد حين، أمّا في إطار المكان فإنّ اللغة تتنوّع في أشكال محكيّة متمايزة من منطقة إلى أخرى، ومتفاوتة من مجتمع إلى آخر، فيميّز الألسنيّون في هذا المجال بين اللهجات الجغرافيّة واللهجات الاجتماعيّة (١٢). والحقيقة أنّ العوامل التي تؤثّر في اللغة وتؤدي إلى تغيّرها يرجع أهمّها إلى الظواهر الاجتماعيّة التي تضمّ ثقافة المجتمع وسلوكه وطرائق حياته وما إلى ذلك، ولكنّ أثر المجتمع في تطوّر اللغة بوصفه العامل الأساس الذي ينبغي أن يتجه إليه النظر هو المهم. وقد تظافرت في هذا المجال جهود أعضاء المدرسة الاجتماعيّة الفرنسيّة التي أنشأها دوركايم(Durkheim) لبيان العلاقة بين اللغة والحياة الإجتماعيّة، وأثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه في مختلف الظواهر اللغويّة(١٣).

دعا اللغويون الاجتماعيّون إلى دراسة أثر النشاط الاجتماعي والسياسيّ والاقتصادي والثقافيّ وغير ذلك من مظاهر الحياة الإنسانيّة على الأسلوب اللغويّ، ودعوا أيضاً إلى دراسة أثر الموقف الكلاميّ المعيّن، ومناسبته وظروفه في الاستعمال اللغويّ، ويقتضي ذلك ملاحظة الكلمات والتعابير التي يستعملها المتكلّم في موقف الفرح أو الحزن أو الاستقبال أو التوديع، أو في مواقف تعليميّة أو سياسيّة أو دينيّة، وغير ذلك من المواقف(١٤)، فمقام الكلام يتحدّد من خلال الظروف الاجتماعيّة المحيطة بالموقف الكلاميّ، ولا بدّ من ملاحظة الكلمات التي تصدر من المتكلّم، وطبيعة المواقف المصاحبة لها، والمؤثرة في الخصائص اللغويّة.

إنّ الإنسان إنّما يتخاطب مع غيره ضمن مواقف اجتماعيّة، وأنشطة إنسانيّة متعدّدة تحدّد شكل الأسلوب اللغويّ الذي يعتمده المتكلّم ونوعيّة الكلمات التي يختارها، وبما يناسب طبيعة المستمع، فما يناسب المرأة لا يناسب الطفل، وما يناسب القاضي لا يناسب الخطيب الدينيّ وهكذا (١٥). والمقام الكلاميّ على وفق هذا الاتجاه يتحدّد من خلال المتكلّم نفسه، الذي ينبغي له إعداد الكلام في ذهنه وتصوّره قبل إلقاءه، بعد ملاحظة الظروف المحيطة بالكلام ونوعيّة المستمع الذي يعتمد على المتكلّم في تحقيق التواصل معه، ولعلّ أوّل من اهتدى إلى وضع معالم هذا الطريق (لابوف/Labove) في كتابه: (علم اللسانيّات الاجتماعيّة)، وثمّة دراسات في هذا الصدد أيضاً قدّمها (ألبرت/Albert) و(فريك/Frake)، و(سانكوف/Sankoif)(١٦).

وتظهر في هذا المجال مباديء أساسيّة لا مناص منها في تحليل الخطاب، فلا بدّ من أن يتساءل المرء في ذلك عن هويّة المخاطب، وموضوع خطابه، وكيفيّة إفراز الموضوع في الخطاب، وظروف فهم السامع وتأويله، ودخل هذه الظروف في علاقة الخطاب باللغة، وكيفيّة انعكاس العناصر غير اللغويّة في التنظيم اللغويّ لعناصر الخطاب، وغير ذلك ممّا يؤكّد أثر الفرد متكلّماً أو مستمعاً في العمليّة اللغويّة. فاللغة مجال لإظهار إمكانات الفرد اللغويّة، بحكم الأدوار التي يؤديها على مسرح الحياة الاجتماعيّة، بما يحتّم عليه استعمال لغة معيّنة أو طريقة معيّنة لكلّ دور، فضلاً عن أنّ اللغة تتأثّر بشخصيّة الفرد في كلّ دور من هذه الأدوار، فشخصيّة الخطيب غير شخصيّة المتعبّد أو المقريء، ولكلّ منهم مقامه الخاصّ الذي يباشر فيه اللغة (١٧).

المدرسة العقليّة:

يفترض المبدأ العقلانيّ وجود حقيقة عقليّة تكمن ضمن السلوك الفعليّ، فكلّ تصرّف لغويّ أو كلّ أداء كلاميّ يخفي وراءه معرفة ضمنيّة بقواعد معيّنة، وتعدّ اللغة على وفق هذا المبدأ تنظيماً عقليّاً فريداً من نوعه، تستمدّ حقيقتها من حيث أنّها أداة التعبير والتفكير الإنسانيّ الحرّ. ولا يمكن تعليم اللغة في الحقيقة من خلال الترداد، أو توفير الحافز(Stimuulus)، بل لا تخضع اللغة في استعمالاتها الطبيعيّة إلى أيّ حافز خارجيّ ولا الى أية حال داخليّة يمكن تحديدها بصورة مستقلّة، وليست اللغة مجرّد عادات كلاميّة، أي مجرّد عمل لا إرادي، وليست بالتالي بمثابة استجابة لشعور معيّن بالألم، أو بالفرح، أو بالجوع. ومن هذا المنطلق يعارض العقلانيّون المبدأ السلوكي، ويميّزون بين ما هو فيزيائي وبين ما هو عقليّ، فالفعل الكلاميّ هو فعل عقليّ في المرتبة الأولى، وإن يكن مرتبطاً بصورة متبادلة بالفعل الفيزيائيّ (١٨).

شهد ظهور هذا التيّار العقليّ في أمريكا إزدهاراً كبيراً على يد عالمين أمريكيّين كلاهما مهتمّ بعلم النفس هما: إدوارد سابير(Edwad Sapir)، وبلومفيلد(Bloomfield)، غير أنّ اهتمام سابير كان منصبّاً على المدرسة العقليّة، بينما كان اهتمام بلومفيلد منصبّاً على المدرسة السلوكيّة (١٩)، وسوف نحاول أن نعرض أولاً أفكار إدوارد سابير لكونه ممثلاً للمدرسة العقليّة.

يمثّل إدوارد سابير جيل الروّاد في هذه المدرسة، وقد اتخذ نموذجه من ميدان آخر- شأنه شأن دي سوسير- هو ميدان الانثروبولوجيا (٢٠)، وقد تأثّر سابير بخطى أستاذه (بواس/Franz Boas) مطوّراً منهجه في بحث الظواهر اللغويّة، وتوجّه توجّهاً كاملاً إل الدراسة العقليّة معتمداً على المصدر البشريّ(Informant) في جميع مادّته اللغويّة، وقدّم بحوثاً كثيرة في عدد من لغات الهنود الأمريكيّين، جامعاً بين اللغة والأنثروبولوجيا، وأصدر كتابه الوحيد (اللغة) متضمّناً آرائه اللغويّة عام ١٩٢١م(٢١).

تشكّل اللغة عند (سابير) دليلاً للواقع الاجتماعيّ، وهي تشترط اشتراطاً قويّاً في أن يعبّر تفكيرنا كلّه عن لمشكلات والعمليّات الاجتماعيّة، فالناس لا يعيشون في العالم الموضوعيّ فقط، ولا في عالم النشاط الاجتماعيّ مثلما يفهم في العادة، بل هم واقعون تحت رحمة اللغة التي أصبحت وسطاً للتعبير في المجتمع الذي يعيشون فيه، وإنّه لمن الوهم كليّاً التخيّل بأنّ أحداً يتلائم مع الواقع من غير استناد إلى اللغة، فواقع الأمر يكمن في أنّ العالم الواقعيّ مبنيّ إلى أقصى مدى بناء لا شعوريّاً على العادات اللغويّة للجماعة، ولا توجد أبداً لغتان متشابهان تشابهاً كافياً لاعتبارهما تمثيلاً للواقع الاجتماعيّ نفسه، فالعوالم التي تعيش فيها مجتمعات مختلفة هي عوالم مختلفة وليست مجرّد عالم واحد بأسماء مختلفة(٢٢)؛ لذا تكون اللغة تنظيماً من الرموز(Symboles) التي وضعت لغاية التواصل، وهي تصدر عن جهاز النطق عند الإنسان، إلا أنّها بصورة أساسيّة سمعيّة(Akustisch)، وهي من ناحية ثانية اصطلاحيّة تمثّل أصواتها المنطوقة(Substance) نتاج الخبرة الإنسانيّة المتنوّعة التي يكتسبها الإنسان عبر ترعرعه في بيئته، فتبدو له كنتاج تاريخي وكتراث مجتمعيّ قديم العهد التصقت به البيئة عبر استعمالها المتواصل له، ومن البديهيّ والحالة هذه أن ترتبط اللغة بصورة وثيقة بثقافة البيئة المجتمعيّة، من هنا يركّز سابير على عدّه اللغة جزءاً مكوّناً لثقافة البيئة التي تتكلّمها(٢٣).

نلاحظ من رأي سابير أنّ اللغة هي التي تمثّل الواقع الاجتماعي، وعلى أساسها يأتي هذا الواقع ويتمّ تعريف العلائق والأنظمة والأعراف التي يشتملها. وعلى أساس اللغة أيضاً يتمّ تحديد مقام الكلام لا العكس، فاللغة هي التي تعرض خصائص هذا المقام، واللغة هي التي تحدّد ظروف هذا المقام.

إنّ اللغة(Langue) عند سابير لا تعني التعبير والقول(Parole)، بل هي البنية(Structure) التي تتحكّم في التعبير وتضفي عليه نماذجها، هكذا تتدخّل اللغة في ترتيب وظائف الحواسّ والعلائق والأنظمة(٢٤).

لقد مهّد سابير بربطه مفهوم اللغة بالبنية لمفهوم البنيوية التي ظهرت بعد ذلك، فقد أكّدوا أنّ دراسة الشكل اللغوي ينبغي أن تكون مستمدّة من واقع اللغة، ورفض التقسيم التقليدي لأقسام الكلام، ورفض عدّها عالميّات لغويّة، ورأى أنّها تصنيفات غير صحيحة وليست وحدات وظيفيّة طبيعيّة، وعلى الباحث أن يدرك أنّ لكلّ لغة أقسامها الخاصّة، ولها تراكيبها المتميّزة(٢٥).

إلى جانب سابير تحدث اللغوي الفرنسي(برونو/F.Brunot) عن اللغة بوصفها بنية مرتبطة بالفكر الإنساني في كتابه: (الفكر واللغة)، فهو يرى وجود تطابق كامل بين أحداث الفكر وأحداث اللغة، لذا يناسب كل حدث فكريّ حدث لغويّ، وهذه الأحداث الفكريّة ينظر إليها وتصنّف بالنسبة إلى: اللغة، ووسائل التعبير المقابلة أو الملائمة، لذا فهو يقسّم اللغة إلى خمسة مظاهر للفكر الإنساني: الأفراد، والأحداث، والظروف، والمظاهر، والعلاقات.

ونظرة (برونو) هذه الى اللغة جعلته يتخلّى عن الفئآت اللغويّة التقليّديّة (كالاسم والفعل)، ويتوسّل في المقابل لحض مختلف الأساليب اللغويّة التي يمكن التعبير بوساطتها عن الأحداث الفكريّة، مثل: الأمل، والشكّ، والعدد، والأعمال الذاتيّة. وغنيّ عن الذكر أنّ كلّ فكرة إنسانيّة يمكن أن يعبّر عنها، ولعلّ اللغة وجدت بالذات لحمل الدلالات والمعاني الإنسانيّة(٢٦).

المدرسة السلوكيّة:

ترجع النظرية السلوكيّة(Behaviourist Theory) في أصلها إلى واطسن(Whatson) رائد المدرسة السلوكيّة في علم النفس، وقد قام بنشر مؤلّفه (السلوكيّة) في سنة ١٩٢٤، ولكنّه مهّد لذلك ببعض المباديء في بعض المقالات والمحاضرات قبل نشر الكتاب ببضع سنين (٢٧).

وتبنّى هذه النظرة السلوكيّة أيضاً ليونارد بلومفيلد، في كتابه: (مدخل إلى اللغة) سنة ١٩١٤م، وأعاد نشره سنة ١٩٣٣، أي بعد اثني عشرة عاماً من نشر كتاب سابير، وفي هذا الكتاب يتطرّق بلومفيلد إلى نظرته السلوكيّة في الوقائع اللغويّة(٢٨)، ويجدر بنا الإشارة إلى أنّ التقاء بلومفيلد عالم النفس ويس (A.P.Weiss)، سنة ١٩٢١م حمله على إعادة النظر في أسس مبادئه الألسنيّة، انسجاماً مع النظريّة السلوكيّة في علم النفس.

يعدّ السلوكيّون اللغة مجموعة عادات صوتيّة يكيّفها حافز البيئة، فلا تتعدّى برأيهم كونها شكلاً من أشكال الحافز، فالاستجابة للحافز، فمتكلّم اللغة يسمع جملة معيّنة أو يشعر بشعور معيّن فتحصل عنده استجابة كلاميّة من دون أن ترتبط هذه الاستجابة بأي شكل من أشكال التفكير، فالاستجابة الكلاميّة مرتبطة بصورة مباشرة بالحافز ولا تتطلّب تدخّل الأفكار أو القواعد النحويّة(٢٩).

ويختزل بلومفيلد تبعاً لذلك وجهة نظره في اللغة بالاعتماد على طرفيّ المعادلة السلوكيّة في المثير والاستجابة بالصورة التالية:

$$S \rightarrow r \ldots\ldots s \rightarrow R$$

حيث يمثل حرف (S) بصيغته الصغيرة والكبيرة المثير(Stimulus)، ويمثّل(R) بصيغتيه اختزالاً للكلمة(Reaction) أي الاستجابة وردّ الفعل، لكنّ الحروف الكبيرة تعني وقائع عمليّة خارج اللغة، في حين تعني الحروف الصغيرة وقائع لغويّة في أثناء عمليّة الكلام(٣٠).

إنّ الأحداث الكلاميّة على وفق مفهوم بلومفيلد يمكن أن تدرس من جوانب متعدّدة، ولا بدّ لنا قبل ذلك من أن نميّز بين عمليّة الكلام والأحداث المصاحبة لها، أي أنّ الأحداث العمليّة بالنظر إلى زمان المتكلّم تتألّف من ثلاثة أجزاء:

١- الأحداث العمليّة السابقة لعمليّة الكلام.

٢- الكلام.
٣- الأحداث العمليّة التالية لعمليّة الكلام (٣١).

فجميع الأحداث التي تسبق أو تعقب عمليّة الكلام ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار، وتسمّى الأحداث التي تسبق هذه العمليّة بمثير المتكلّم أو الحافز، أمّا الأحداث التي تلي الكلام وتتعلّق بالسامع فتدعي استجابة السامع، ويخضع حدوث الكلام والسلسلة الكلاميّة للأحداث العمليّة السابقة والتالية للكلام لقصّة حياة كلّ من المتكلّم والسامع(٣٢)، فالموقف الكلاميّ لا يشتمل على الأحداث المصاحبة للكلام بل يشتمل على الأحداث السابقة واللاحقة لعمليّة الكلام أيضاً، يؤيّد ذلك تعريف بلومفيلد للمبنى اللغويّ بأنّه: ((الموقف الذي ينطبق في المتكلّم، ذلك المبنى والاستجابة التي يحدثها في السامع))(٣٣).

فالسلوكيّون يفترضون حصول الإستجابة الكلاميّة للحافز على نحو شبيه بما يحصل عند الحيوان، ويتّخذون من التجارب المختبريّة التي تبرز مثلاً سلوك بعض الحيوانات (كالفأر مثلاً) تجاه الحافز برهاناً يؤكّد أنّ اللغة تنجم عن الحافز بالذات، ومن هذه الزاوية تبدو اللغة بالنسبة للسلوكيّين كسلسلة من الاستجابات المتتالية، وتصل الأحداث الماديّة إلى الذاكرة بوساطة قنوات الحواسّ أو تكمن في الذاكرة، وتترابط هذه الأحداث في اللغة مع عناصر الكلام التي ترد بالنتيجة في السياق الكلاميّ إلى هذه الأحداث(٣٤).

وعلى الرغم من تحديد بلومفيلد للموقف الكلامي على أساس المثير والاستجابة إلا أنّه يشير إلى صعوبة تتصّل بالمعنى وهي شخصيّة المتكلّم التي تشتمل على استعداد جهازه العصبيّ الناتج عن خبراته اللغويّة وغير اللغويّة، والاختلاف بين متكلّم وآخر في مؤهلاتهما العقليّة، الأمر الذي يحول من دون التنبؤ بما سيقوله المتكلّم، ثمّ إنّ المتكلّمين لا يتقيّدون بالموقف المحدّد(٣٥)، هذه الصعوبة تحول من دون تكامل الموقف الكلاميّ لأنّ الاستعداد الشخصيّ يختلف من شخص لآخر، فضلاً عن أنّ المؤهلات العقليّة والاستجابات المتولّدة من الموقف مختلفة تبعاً للموقف وبذلك فإنّ المعنى من وجهة نظر بلومفيلد يكون نقطة الضعف في دراسة اللغة.

فضلاً عنّ أنّ الدراسة الألسنيّة التي تبني المبدأ السلوكيّ تظهر اللغة على أنّها تنظيم من الأشكال وليست شبكة من المعاني، ويظهر هذا النهج بصورة واضحة عند بلومفيلد بصورة خاصّة(٣٦).

البنيويّة:

هي تتابع منتظم لعدد معيّن من العمليّات الذهنيّة، يهدف هذا النشاط إلى إعادة بناء شيء ما وإعادة خلقه وإعطائه مجموعة من الوظائف بحيث تظهر في عمليّة إعادة التكوين هذه القواعد التي تحكم وظائف ذلك الشيء، فالبنية إذاً صورة أو ظلّ لهذا الشيء، لكنّها صورة موجّهة، فالنشاط البنيويّ يأخذ الواقع ويفكّكه ثم يعيد تركيبه(٣٧).

ربّما كان من أهمّ ما يميّز البنيويّة أنّها تهتم بتقعيد الظواهر وتحليل مستوياتها المتعدّدة في محاولة للقبض على العلائق التي تتحكّم بها، وهذا ما يجعل من البنيويّة منهجاً لا فلسفة، أي باختصار ما يجعل منها علوماً كثيرة تهتم باستخراج المستويات التحليليّة للظواهر الإنسانيّة وكشف شبكة العلائق والأنساق السائدة فيها(٣٨).

وفكرة الإفادة من علم اللغة بدراسة ظواهر ثقافيّة أخرى تستند إلى اعتقادين أساسيين: الأول: إنّ الظواهر الاجتماعيّة والثقافيّة ليست مجرّد موضوعات أو أحداث ماديّة بل هي موضوعات أو أحداث ذات معنى وبالتالي فهي إشارات.

والثاني: إنّ هذه الظواهر ليست جواهر أو ماهيّات قائمة في ذاتها بل إنّها محدّدة بشبكة من العلائق الداخليّة والخارجيّة، وإذا كانت الأفعال الإنسانيّة ذات معنى فلا بدّ من أن يحكمها نظام تحتي من التمييزات والأعراف التي تجعل من المعنى أمراً ممكناً(٣٩).

إنّ المنهج البنيويّ لا يمكن حصره والحديث عنه من خلال رجل واحد، أو مدرسة واحدة ، يقول رولاند بارت(Roland Barthes) عن البنيويّة إنّها ليست مدرسة أو حتى حركة بعينها؛ لأنّ أغلب المؤلّفين الذين يمثلونها غير متضامنين فيما بينهم من حيث النظريّة أو الفكر، فالبنيويّة في نظر من يستخدمون هذه الكلمة هي أساساً (نشاط) أي تتابع منتظم لعدد من العمليّات الذهنيّة(٤٠)، ولكن من اليسير أن نقول إنّ البنيويّة قامت كردّة فعل للمناهج القديمة، فهي تعدّ ثورة على التمسّك بها تمسّكاً لا يميّز الجيّد والرديء، فظهرت هذه الثورة بعد بلومفيلد في المدرستين: التوزيعية والوظيفية على أغلب الأحوال، وسوف نكتفي بهما كنموذجين ممثلين لهذا المنهج (٤١).

أ- التوزيعيّة:

ظهرت التوزيعيّة(Distributionalismns) في زمن بلومفيلد واستمرّت إلى زمن هاريس، وقد ظهر فيها مجموعة من العلماء البارزين أمثال : (بلوك/B.Bloch)، و(هوكيت/C.F.Hockett)، و(تراغر/G.trager)، وغيرهم، إلا أنّ الفضل في ظهوره مذهباً ألسنياً له معالمه يرجع إلى العالم الأمريكي الروسيّ الأصل (زيلغ هاريس/ Zellig Harris) الذي يعدّ بكتابه: (مناهج في الألسنيّة البنائيّة) واضع هذه النظرية، مع أنّه في كتابه هذا كان يطبّق شيئاً من أفكار بلومفيلد بمنهج خاصّ وطريقة رياضيّة عسيرة التتبّع، معتمداً على أفكار الرائد الأوّل دي سوسير في تطبيقه، فيعتمد في نظريّته اللغة وليس الكلام ميداناً للدراسة، فيدرسها دراسة تزامنيّة(Synchronie) وليست تزمنيّة تاريخيّة(Diachronic)(٤٢).

إنّ تحليل النصّ فيما يراه أصحاب هذه المدرسة يعود إلى ما فيه من مستويات تركيبيّة: صوتيّ وصرفيّ وتركيبيّ جمليّ، يقتضي أن ينظر إليها من حيث نهاية ما وصلت إليه، إي إلى التركيب الدلاليّ، ليصل المحلّل في النهاية إلى القول بأنّ التركيب (س) بتوزيع مبانيه يساوي التركيب (ص)(٤٣). ويقوم المحلّل في المنهج التوزيعيّ بردّ النصّ الذي يجمعه من عيّنة من عدد من المتكلّمين المتجانسين في فترة محدّدة زماناً ومكاناً إلى مستوياته الصوتيّة والصرفيّة والتركيبيّة، فيجمع المتبادلات المتماثلات شكلاً من غير اهتمام كبير بالمعنى في مكان واحد ثم يقوم بتصنيف القواعد التي تحكم التوزيع الشكليّ(٤٤).

إنّ التركيز في هذه المدرسة يعتمد اللغة المكتوبة أساساً للتحليل اللغويّ، ويشترط لإجراء عمليّة التحليل أخذ عيّنات مختلفة لعدد من المتكلّمين المتجانسين ثقافيّاً وعقليّاً من خلال فترة محدّدة زمانيّاً ومكانيّاً ثم إجراء عمليّة تحليل النصوص الواردة عنهم إلى مكوّناتها الأساسيّة من دون اهتمام بالمعاني التي تنبثق من هذه النصوص، ثمّ توزيع المباني التي تنتهي إليها إلى متشابهات، وفي كلّ ذلك لا نجد تركيزاً أو كثير عناية بالموقف الكلاميّ لأنّه أصبح منعزلاً لا يحقّق مسألة التعدّد المشترط في المتكلّمين، فضلاً عن أنّ المتكلّمين لا ينالون عناية إلا من ناحية ما يصدر عنهم من لفظ أو جمل.

ب-الوظيفيّة:

ربّما كان العالم الدنماركي هلمسيلف(Hgelmselev) صاحب النظريّة الكلوسيماتيكيّة (Glossematic)، وهي النظريّة الخاصّة بالوظيفة الإيجابيّة للكلام من أوّل من أبرز مفهوم الوظيفيّة، إحياء لما جاء في محاضرات دي سوسير، ولكنّ الذي تصدّر لها وجعلها نظريّة ذات معالم في التحليل اللغويّ هو العالم الفرنسيّ مارتينيه(Martinet)(٤٥).

يرى أصحاب هذه المدرسة أنّ العينة اللغويّة موضوع التحليل تتكوّن من مجموعة من المكوّنات الصغرى من عناصر الصوت الفونيمات(Phonemes)، وعناصر الصياغة المورفيمات(Morphology)، وتتكوّن دراسة هذه المكوّنات من جانبين: صوتيّ(Phonetics)، وتركيبي- نظمي- جمليّ(Syntaktischer)(٤٦).

اهتمّ مارتينيه باللغة اهتماماً يقابل وظيفتها الكليّة، أي أنّها ببنيتها الكليّة بوظيفة نقل المعلومات بين المتكلّمين بها، وليس بجزئيّاتها: مفردات أو أصوات، ومن هنا فهو يدرس الجزيء الصرفيّ(Morph) في الفونيم المشتق من حيث وظيفته في الصيغة وصولاً إلى الجملة وتركيبها ووظيفتها(٤٧).

وعلى الرغم من إشارة أصحاب هذه المدرسة إلى الوظيفة الإيجابيّة للكلام، إلا أنّهم قصدوا وظيفة نقل المعلومات بين المتكلّمين من دون الدخول في جزئيّات هذه الوظيفة أو الظروف المحيطة بها، ومثلما لاحظنا في المدرسة التوزيعيّة فإنّ الأمر ينطبق هنا مع اختلاف بسيط وهو أنّ اللفظ يؤدي وظيفة جزئيّة تتوسّع فيما بعد لتشمل الجملة وتركيبها، ولا نجد هنا كثير عناية بالموقف الكلاميّ وما جاء فيها هي مجرّد إشارات عابرة لا تمسّ جوهر الموقف الكلاميّ.

بالإضافة إلى هاتين المدرستين فقد كانت هناك مدارس أخرى، وكان هناك أفراد آخرون يمثل كلّ منهم – بالمعالم التي وضعها- منهج تحليل لغويّ، وكأنّه مدرسة قائمة بذاتها، مع أنّه يسير في إطار كبير يسمّى البنيويّة، فقد كانت حلقة براغ التي أسسها ماثيشيوس(Mathesius) سنة ١٩٢٦م، واستقطب لها (تروبتسكوي/Nikolai S. Troubetskoi)، و(رومان جاكوبسون/Roman Gakobson)، وهما من ألمع لغويّي هذا العصر، فاصطبغت الحلقة بصبغة البحث المشترك في عدد من النقاط الرئيسة في منهج دي سوسير من أبرزها الرمزيّة اللغويّة، والأخذ بالمنهج التزامنيّ(Synchronic) في التحليل، بالإضافة إلى الصيغة العلميّة الجادّة التي أضفياها على دراسة الأصوات من حيث ما يسمّى بالدلالة الصوتيّة(Phonology)(٤٨).

المدرسة التوليديّة التحويليّة:

يعدّ جومسكي(Naom Chomsky) رائد هذه المدرسة ومنجز ثورتها إثر نشره لكتابه الأول: البنى النحويّة(Syntactie Stiuctures) في سنة ١٩٥٧م، إذ غيّر اتجاه علم اللغة من المنهج الوصفيّ المحضّ إلى منهج جديد آخر هو ما يُعرف بالمنهج التحويليّ(٤٩).

إنّ القواعد التوليديّة التحويليّة(Transformational Gramer) تهتمّ مباشرة بآليّة اللغة التي تتيح للإنسان أن ينتج جمل اللغة كلّها، إنطلاقاً من تنظيم القواعد الكائن ضمن كفايته اللغويّة، وعمليّة الإنتاج هذه منوطة في الأساس بنوع من القواعد التوليديّة التي تؤدي في حال العمل بها إلى انتاج كلّ الجمل التي يمكن استعمالها في اللغة(٥٠)، أمّا مفهوم التحويل فينصّ على إمكانيّة تحويل جملة إلى جملة أخرى، واعتماد مستوى أعمق من المستوى الظاهر في الكلام، وبإمكانه أن يكشف المعاني الضمنيّة للجمل(٥١).

ينطلق جومسكي في تعريفه اللغة من حيث هي مجموعة متناهية أو غير متناهية من الجمل، فهي كلّها متناهية من حيث الطول، ومبنيّة عن طريق التتابع بوساطة مجموعة عناصر متناهية. وينطبق هذا التعريف على اللغة الطبيعيّة وعلى اللغة الاصطناعيّة التي تستعمل كتعليمات للآلة المبرمجة(٥٢). ويركّز جومسكي على الجانب الاجتماعيّ في استعمال اللغة، فمعظم ما يتفوّه به الفرد- في نظره- في الاستعمال اللغويّ هو تجديد وليس تكراراً لما سمعه من قبل مشيراً إلى أنّ هذا الفهم قوبل بالتجاهل في الحقبة التي ساد فيها النظر السلوكيّ في علم اللغة(٥٣). والسلوك اللغويّ الفعليّ المتمثّل بالكلام الذي يصطلح عليه بالأداء(Performance) يشبّه بقمّة

جبل لنظام الكفاءة(Competence)، وتعبير الكفاءة اللغويّة التقنيّ يشير إلى مقدرة المتكلّم – السامع المثاليّ- على إقران الصوت بالمعنى بالتوافق مع قواعد لغته، وقواعد اللغة كأنموذج للكفاية اللغويّة المثاليّة تقيم علاقة معيّنة بين الصوت والمعنى، وبين التمثيل الصوتيّ والتمثيل الدلاليّ، وهدف دراسة اللغة هو إكتشاف هذه القواعد(٥٤).

يمثّل الأداء بذلك استعمال الفرد المتكلّم هذه القواعد فيما ينطبق به أو يكتبه أيّ أنّ عمليّة توظيف لهذه القواعد.

من خلال ذلك نرى أنّ جومسكي يعتمد في مقهومه على ما يعرف بالبنية العميقة(Struture de Base) والبنية السطحيّة(Structure de Surface)، وتعود البنية العميقة إلى الفكرة الذهنيّة المجرّدة في عقل الإنسان، تلك التي يودّ المتكلّم التعبير عنها، وأمّا البنية السطحيّة فإنّها تجسيد هذه الفكرة الذهنيّة في كلمات منطوقة يتمّ بها تحويل الفكرة من مرحلة إلى مرحلة فتنطق متفقة مع قوانين اللغة وقواعدها من حيث المبنى، وأمّا المعنى فيبقى مع البنية العميقة بصلة هي صلة الشيء المجسّد أصله بالمفترض(٥٥).

أمّا قواعد النحو التحويليّ فإنّها تهتمّ بالعبارة محوّلة إلى ميدان حسيّ منطوق أو مكتوب، مقاسة على قوانين اللغة التي تنطق العبارة بها، فيراعى فيها المتكلّم ما يجب أن يراعيه ليحكم على عبارته بالصحة النحويّة، وتعمل الكفاءة مع البنية العميقة مع قواعد النحو التحويليّ في خط يوازي عمل الأداء مع البنية السطحيّة مع قواعد النحو التحويلي لتمكن المتكلّم من إيجاد عدد محدّد من الفونيمات والمورفيمات (٥٦).

نلاحظ ممّا سبق أنّ المقام الكلاميّ يكون خاضعاً لقواعد اللغة فما يريد المتكلّم أن يعبّر عنه لا بدّ من أن يصوغ الكلام في ذهنه أولاً اعتماداً على قواعد النحو، ثمّ يتبعه بعد ذلك بالنطق بالكلام، فالعلاقة بين نوع المقام الكلاميّ وطبيعة الكلام المتولّد عنه انعدمت وحلّت محلّها علاقة قائمة بين الكلام المترتب في الذهن والبنية العميقة، والكلام المنطوق أو المكتوب والبنية السطحيّة.

وعلى الرغم من نظرة جومسكي للغة من الجانب الاجتماعي إلا أنّه قصر هذا الجانب على الاستعمال اللغويّ فقط من دون أن يعكسه إلى طبيعة المواقف المترتّبة في الواقع.

السيميائيّة:

علم السيمياء يمثّل ذروة الدراسات اللغويّة الحديثة، وهو يختصّ بالبنية، ويؤكد على العلامة اللغويّة.

وكلمة السيمانتك(Semantique) مشتقة من الأصل اليوناني (سيميو) أي العلامة، ويرجع مصطلح السيمولوجيا(Semiology) إلى فرديناند دي سوسير عالم اللغة السويسري الذي كان أول من استعمل كلمة (سيمياء) لأول مرّة في فرنسا، وركّز على اللغة فجعل منها مظلّة تغطّي اللغات الاشاريّة (السيميولوجية) الأخرى.

وأمّا مصطلح السيميوطيقا فيرجع إلى الفيلسوف الأمريكيّ شارك ساندرز بيرس(C.S.Peice) الذي استعار المصطلح من التسمية التي أطلقها جون لوك على علم خاصّ بالعلامات ينبثق عن المنطق(٥٧).

وعلم السيمياء ((هو علم تفسير معاني الدلالات والرموز والإشارات وغيرها، ويعدّ من أحدث العلوم في ميادين اللغة والأدب والنقد، وهو امتداد للألسنية... وتطوير لها؛ لأنّه يعتمد عليه أصلاً))(٥٨).

تنتمي السيمياء في أصولها ومنهجيّتها إلى البنيويّة، إذ البنيويّة نفسها منهج منتظم لدراسة الأنظمة الإشاريّة المختلفة في الثقافة العامّة، ولهذا يصعب التمييز بين الحقلين تمييزاً مانعاً، بل إنّ المهتمين بالبنيويّة والسيميولوجيا راوحوا دائماً بين أولويّة الواحدة على الأخرى، حتى لو حاولوا إيجاد ما يميّز الواحدة عن الأخرى(٥٩).

لقد كان الاثنان دي سوسير، وبيرس أساساً انطلقت منها الجهود لتأسيس هذا العلم الذي يقوم على دراسة أنظمة التواصل البشريّ على مستويات عديدة، وهكذا ترى أنّ دي سوسير رائد السيميولوجيا الفرنسيّة، وأنّ بيرس هو رائد السيميولوجيا الانجليزيّة، وقد اتّحد المصطلحان من بعد، تحت اسم (السيميوطيقا) بقرار اتخذته (الجمعيّة العالميّة للسيميوطيقا) التي انعقدت في باريس عام ١٩٦٩م (٦٠)، فالمصطلحات وإن اختلفت إلا أنّها تدلّ على معنى واحد.

ولئن كان فرديناند دي سوسير هو الذي استخلص مسمّى (السيميولوجيا) من علائقه الطبيّة في المهاد الأغريقيّ ليطلقه على علم العلامة إو الإشارة، فإنّه هو أيضاً أوّل من ميّز اللسانيّات عن السيميولوجيا حين أصرّ على أنّ السيميولوجيا أصل واللسانيّات فرع منها، غير أنّ رولان بارت الذي مارس التحليل السيمولوجي على أكمل وجه جاء بما يقلب مقولة دي سوسير، إذ زعم أنّ اللسانيّات (بوصفها أكمل الأنظمة العلاماتيّة) هي الأصل، وأنّ السيميولوجيا فرع منها، أمّا جاك دريدا(Jacques Derrida) فهو وإن اعترف بجهود بارت إلا أنّه دعا إلى قلب مقولة بارت نفسها وذهب إلى أنّ النحويّة(Grammatology) الكتابة بوصفها أثراً هي سمة الإشارة الكبرى، ولا بدّ من أن تكون الأصل الذي عنه تتفرّع السيميوطيقا واللسانيّات، ومهما يكن من أمر التمييز بين البنيويّة والسيميولوجيا فإنّ هذا التمييز يبقى تمييزاً محليّاً مرحليّاً(٦١).

إنّ مفهوم العلامة اللغويّة يختلف من حيث تحديد المبنى فهي عند دي سوسير كياناً ثنائيّ البنية، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، الأوّل هو الدالّ(Signifiant) ، والثاني هو المدلول(Signifie)، أمّا عند بيرس فهي أوسع نطاقاً من الأولى، حيث امتدّت فاعليّتها خارج علم اللغة، وأعطاها تحديداً أشمل وأكثر عموميّة، فجعلها ثلاثيّة المبنى تتكوّن من المصوّرة(Representamen) والمفسّرة(Interpretant)، والموضوع(Object).

وما يهمّنا هنا هو عرض الأثر الذي تحدثه العلامة في التأثير على مقام الكلام، ولكي نصل إلى هذا الأثر لا بدّ لنا من عرض الإتجاهات السيميائيّة المعاصرة والحكم على ما تتضمّنه هذه الاتجاهات ممّا له علاقة بمقام الكلام والظروف المحيطة به.

لقد صنّف اللغويّون وظيفة العلامة ضمن ثلاث اتجاهات، وهي كالآتي:

أ- سيمياء التواصل:

يذهب أنصار هذا الاتجاه (بويسنس/Buyssens)، (بريتيو/Prieto)، (مونان/Mounin)، (فنجشتاين/Wittgenstein) إلى أنّ العلامة تتكوّن من وحدة ثلاثيّة المبنى: الدالّ والمدلول والقصد، وهم يركّزون في أبحاثهم على الوظيفة التواصليّة أو الاتصاليّة، ولا تختّص هذه الوظيفة بالرسالة اللسانيّة، وإنّما توجد أيضاً في البنيات السيميائيّة التي تشكّلها الحقول اللسانيّة، غير أنّ هذا التواصل مشروط بالقصديّة وإرادة المرسل في التأثير على الغير، وبناء على ذلك انحصر موضوع السيميائيّة في العلامة القائمة على

الاعتباطيّة؛ لأنّ العلامات الأخرى ليست سوى تمظهرات بسيطة، ومهنى ذلك أنّ تحديد معنى تعبير رهين بتعيين مقاصد المتكلّمين والكشف عنها، وبذلك تكون المقاصد ملمحاً مميّزاً(٦٢)، ومثلما هو معلوم فإنّ التعبير بالألفاظ عمّا في ذهنيّة المتكلّم، ومحاولة التأثير في السامع وجذب اهتمامه لما يقول هو جزء من شروط المقام المتحقّق في الكلام، وهو أمر نلمحه بشكل واضح في وظيفة العلامة التواصليّة، فهي تسعى إلى إيجاد نوع من الرابطة بين الدالّ والمدلول من خلال القصديّة التي يحدّدها المتكلّم فيؤثّر في السامع وينقل إليه هذه القصديّة.

لم تركّز سيميائيّة التواصل على الظروف المحيطة بالموقف الكلاميّ وإنّما قصرت اهتمامها على الصلة الكلاميّة بين المتكلّم والسامع فقط من دون ارتباط بالمحيط الخارجي، وهذه الصلة قد تكون لسانيّة من خلال الفعل الكلاميّ وقد تكون غير لسانيّة متولّدة من الإشارات والعلامات العرفيّة الاجتماعيّة.

ب- سيميائيّة الدلالة:

يختصر أنصار هذا الاتجاه- وفي مقدّمتهم بارت- العلامة إلى وحدة ثنائيّة المبنى (دالّ، ومدلول) على غرار ما اقترحه دي سوسير للعلامة اللغويّة، ولكن ما يميّزه عن الاتجاهات الأخرى، ويجعله على النقيض من دي سوسير هو قلبه الأطروحة السويسريّة القائلة بعموميّة علم العلامة وخصوصيّة علم اللغة، وتأسيساً على ذلك أصبح النظام اللغويّ المغلق أنموذجاً يجب أن يحتذى في دراسة جميع الانظمة الدالّة(٦٣)، وهي وجهة نظر صحيحة إذا ما نظرنا إلى السيميائيّة اللغويّة فقط من دون أيّ نوع آخر من السيميائيّات، وهو أمر لا يسلم لنا في الأحوال الطبيعيّة.

لقد ميّزت الالسنيّة(Linguistique) بين اللغة(Langue) والكلام(Parole) وجعلت وجودهما ضروريّاً لها، فلا يمكن أن توجد لغة من دون أن يوجد كلام، أمّا في السيميائيّة فلا تفرّق بينهما، فلا بدّ من أن تتعاقب اللغة والكلام من غير أن ينطلقا من المنطلق نفسه(٦٤).

يقترح بارت مسميّات جديدة تختلف عن المسميّات الألسنيّة، فالعلامة السويسريّة (أي اتحاد الدالّ بالمدلول) يسميها بارت: الدلالة(Signification)، كما يضع الشكل(Forme) بديلاً لما يسميه دي سوسير (دالاً)، أمّا ما كان سوسير قد أطلق عليه مسمّى (المدلول) فيسميه بارت (المفهوم)، ولئن بدا هذا الطرح، وهذه التسميات خارجاً على الطرح البنيويّ اللسانيّ أو تجاوزاً له، فإنّ الحقيقة غير ذلك، إذ أنّ المتمعّن في طرح بارت يجد أنّ تحليله الاسطوريّ هو صورة مستنسخة عن تحليل سوسير للدلالة اللغويّة(٦٥).

ويرى بارت أنّ التوسيع السيميائيّ لمفهوم (اللغة / الكلام) لا يخلو من إثارة بعض المشاكل التي تصادف الجوانب التي لا يمكن فيها اتباع خطى النموذج اللغويّ ويتحتّم من ثمّ تعديله، ففي اللغة لا يمكن لأيّ شيء أن يدخل فيها ما لم يكن الكلام قد اختبره، وعلى العكس من ذلك يستحيل إنشاء أي كلام ما لم يستمدّ خزينه من اللغة؛ ذلك لأنّ وضع اللغة تمّ بتواطؤ المتكلّمين بها على ما فيها من دلالات، في حين أنّ العلامات وهي مجال السيميائيّة تمّ وضعها بطريقة إصطناعيّة إنفراديّة إعتباطيّة لتدلّ على ما تدلّ عليه.

فضلاً عن أنّ اللغة والكلام متناسبين حجماً في الألسنيّة، أمّا في السيميائيّة فهما قد يتفاوتان حتّى ليكاد يكون لغة من دون كلام(٦٦)، إنّ العلامة في هذا النوع من السيميائيّة تركّز على الوظيفة الإجتماعيّة للغة بمعنى أنّها رهينة للاستعمال المحدّد بزمان ووقت معينيّن، فهي لا تتحدّد إلا بمجيء الاستعمال المناسب لها وحلول وقته وأوانه.

نلاحظ ممّا سبق أنّ اللغة هي الأساس في وضع دلالة العلامة، وتوضيح المقصود منها، وهذا المعنى لا يتحدّد من خلال الكلام، وإنّما قد لا يكون كلام أصلاً، بل تتوارد الأفكار في الذهن عن معنى العلامة من دون حاجة إلى الكلام، وما دام الأمر كذلك فإنّ الاهتمام بالكلام والموقف المحيط به ظلّ منحصراً في حدود اللغة التي تمثّل قواعد وضع اللفظ في موضعه، فلا حاجة بهم إلى الكلام ما دام المقصود واضحاً.

جـ سيمياء الثقافة:

يمثّل أنصار هذا الاتجاه المستفيد من الماركسيّة، ومن فلسفة الأشكال الرمزيّة عدد من العلماء والباحثين السوفيت الذين تُطلق عليهم تسمية (جماعة: موسكو- تارتو) ، وهم: (يوري لوتمان/Youri Lotman)، (إيفانوف/Ivanov)، (بوريس اوسبنسكي/B.Uspensky)، (بياتيكورسكي/Pjtigorski)، وكذلك الايطالي (روسي لاندي/Landi) وهم يرون أنّ العلامة تتكوّن من وحدة ثلاثيّة المبنى: الدالّ والمدلول والمرجع (Referent)(٦٧).

ويذهب هذا الاتجاه إلى أنّ العلامة لا تكتسب دلالتها إلا من خلال وضعها في إطار الثقافة، وهي ليست علامة مفردة بل أنظمة دالّة، أي مجموعة من العلامات التي ترتبط مع بعضها بعلاقات متبادلة ضمن إطار الثقافة الواحدة (٦٨)، وتمثّل الثقافة على وفق هذا إطار واسع يجمع كلّ العلامات الموجودة، فهو بمثابة السياق الذي يحيط بهذه العلامات اللغويّة، وقد كان السياق ممثلاً لعلامات جغرافيّة أو اقتصاديّة فضلاً عن اللغويّة، هذه العلامات أسهمت في تحديد العلاقة الرابطة بينها وتحديد الدلالة.

إنّ الملاحظة المهمّة من هذا النوع من السيميائيّة أنّها لا تهتمّ بالموقف الكلاميّ إلا من خلال العلامة اللغويّة وما تؤديه من معنى مستمدّ من الثقافة التي تحتوي هذه العلامة، وعلى قدر اختلاف اتجاه الثقافة يتحدّد المقصود من العلامة ومعناها.

نتائج البحث:

لقد تمخّض البحث عن مجموعة من النتائج المهمّة، وهي كالآتي:

- من الحقائق الواضحة للعيان أنّ العرب سبقوا الغرب في الحديث عن المقام، والبحث عن الظروف المحيطة بالكلام، ولكنّنا ندين للغربيّين في مسألة تنظيم مفردات المقام الكلاميّ من شروط وخصائص ضمن نظريّة لها أصولها وقواعدها، فضلاً عن أنّ كثيراً من الأمور التي كانت تعتمد الذوق عند العرب أصبحت عند الغربيّين مقاييس ماديّة يمكن من خلالها تحديد جدّة النصّ وجماليّته.
- ارتبطت قضيّة المقام الكلاميّ بالجانب الاجتماعيّ، فطبيعة المقام تتحدّد من خلال شخصيّة المتكلّم، والسامع، وطبيعة الكلام الذي يدور بينهما، والظروف المحيطة به، وكلّ هذه الأمور مستمدّة من المجتمع.
- ركّزت المدرسة الاجتماعيّة على أهميّة دراسة أثر النشاط الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ على اللغة، وملاحظة الكلمات التي يستعملها المتكلّم في مواقف معيّنة؛ لأنّها تكشف عن كثير من الأمور التي تدخل ضمن التحليل اللغويّ، ومقام الكلام على وفق هذا الاتجاه يتحدّد من خلال المتكلّم نفسه، الذي ينبغي له تصوّر الكلام وإعداده في ذهنه قبل إلقاءه للسامع، وملاحظة الظروف المحيطة بالكلام، ونوعيّة المستمع الذي يعتمد على المتكلّم في تحقيق التواصل معه.
- إنّ أصحاب المذهب العقليّ يرون أنّ اللغة هي التي تمثّل الواقع الاجتماعيّ وعلى أساسها يأتي هذا الواقع، ويتمّ تحديد الأنظمة والعلائق التي ينتظمها على أساس اللغة أيضاً، ثمّ تحديد مقام الكلام، فاللغة هي التي تعرض خصائص المقام، واللغة هي التي تحدّد ظروف هذا المقام.
- إنّ موقف الكلام في ضوء المدرسة السلوكيّة لا يشتمل على الأحداث المصاحبة للكلام بل يشتمل على الأحداث السابقة واللاحقة لعمليّة الكلام.

لقد حدّد أصحاب هذه المدرسة الموقف الكلاميّ على أساس المثير والاستجابة إلا أنّهم أشاروا إلى مجموعة الصعوبات التي تعترض هذا الموقف فلا يوجد موقف متكامل، ومن أمثلة الصعوبات: اختلاف الاستعداد العصبيّ والعقليّ لدى المتكلّمين ممّا يؤدي إلى اختلاف الكلام وطبيعته ومقامه تبعاً لاختلافهم وتباينهم، وعدم تحديد موقف محدّد يجمع عناصر الموقف الكلاميّ في آن واحد، فأصبح المعنى ضعيفاً في دراسة اللغة في هذه المدرسة.

- في البنيويّة وقع التركيز على اللغة بوصفه أساساً للتحليل اللغويّ، ولا نجد تركيزاً أو عناية بالموقف الكلاميّ لأنّه أصبح منعزلاً لا يحقّق مسألة التعدّد المشترط في المتكلّمين، فضلاً عن أنّ المتكلّمين لا ينالون العناية الكافية إلا من ناحية ما يصدر عنهم من كلام.
- يكون المقام في النهج التحويليّ خاضعاً لقواعد اللغة فيما يريد المتكلّم أن يعبّر عنه فلا بدّ من أن يصوغ كلامه في ذهنه ثم يتبعه بالنطق بالكلام، أمّا العلاقة بين نوع المقام الكلاميّ وطبيعة الكلام المتولّد عنه فقد انعدمت وحلّت محلّها علاقة قائمة بين الكلام المترتّب في الذهن والبنية العميقة والكلام المنطوق أو المكتوب والبنية السطحيّة.
- في السيميائيّة لم يتمّ التركيز على الظروف المحيطة بالموقف الكلاميّ وإنّما اقتصر الاهتمام على الصلة الكلاميّة بين المتكلّم والسامع فقط من دون ارتباط بالمحيط الخارجيّ، والاهتمام ظلّ في حدود اللغة أو العلامة اللغويّة.

الهوامش:

(١) ظ: علم النفس اللغويّ: د. نوال محمد عطيّة: ٣٣.

(٢) ظ: (بحث): مراعاة المخاطب في الأحكام النحويّة في كتاب سيبويه: د. كريم حسين الخالدي: ٩٨.

(٣) ظ: اللغة العربيّة، معناها ومبناها: د. تمّام حسّان: ٣٣٧.

(٤) ظ: المصدر السابق: ٤٢.

(٥) ظ: (بحث): نظريّة (السياق) والموقف الكلاميّ بين اللغويّين العرب والأجانب: أ.د هادي النهر: ٦٨.

(٦) ظ: (بحث): جوانب من النظريّة اللغويّة العربيّة في ضوء الدراسات الحديثة: د. هدى محمّد صالح الحديثيّ: ٤٧.

(٧) ظ: (بحث): نظريّة (السياق) والموقف الكلاميّ بين اللغويّين العرب والأجانب: ٦٨.

(٨) ظ: علم اللغة: د. محمود السعران: ٣٣٩.

(٩) ظ: (بحث): نظريّة (السياق) والموقف الكلاميّ بين اللغويّين العرب والأجانب: ٦٩.

(١٠) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: د. ميشال زكريّا: ١٣، ١٤، ودليل الناقد الأدبيّ: د. ميجان الرويلي وزميله: ٢٨.

(١١) ظ: (بحث): التناقض بين المذاهب الألسنيّة الحديثة: د. رشيد عبد الرحمن العبيدي: ١٠٨- ١٠٩.

(١٢) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ١٠٥.

(١٣) ظ: (بحث): في الدلالة والتطوّر: د. أحمد محمد قدّور: ١٢١.

(١٤) ظ: اللغة في إطارها الاجتماعيّ: مصطفى لطفي: ٦٣ وما بعدها.

(١٥) ظ: (بحث): نظريّة (السياق) والموقف الكلاميّ بين اللغويّين العرب والأجانب: ٧٠.

(١٦) ظ: في تحليل الخطاب وبعض القضايا التواصليّة من وجهة نظر لسانيّة: د. رضا السويس: ٤.

(١٧) ظ: (بحث): نظريّة (السياق) والموقف الكلاميّ بين اللغويّين العرب والأجانب: ٧١.

(١٨) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٧٤، ٧٥.

(١٩) ظ: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقديّة الحديثة: عبد الله الغانميّ وآخرون: ٤٦.

(٢٠) ظ: النحو العربيّ والدرس الحديث ، بحث في المنهج: ٣٣.

(٢١) ظ: معرفة الآخر: ٤٧، الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٢١٨، ٢٢٢.

(٢٢) ظ: اللغة علماً: إدوارد سابير، ترجمة: سعيد الغانميّ: ٨، ومعرفة الآخر: ٥٠، والألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٢٢٠، ٢٢١.

(٢٣) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٢٢٠- ٢٢١.

(٢٤) ظ: البنيويّة: جان ماري أوزياس، ترجمة: ميخائيل مخوّل: ٤٥.

(٢٥) ظ: اللغة علماً : إدوارد سابير: ٥٩، والنحو العربي والدرس الحديث: ٣٦.

(٢٦) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٧٦، ٧٧.

(٢٧) ظ: Bloomfeld Language P22 نقلاً عن كتاب: وصف اللغة العربيّة دلاليّاً: ٩٦.

(٢٨) ظ: معرفة الآخر: ٥٠- ٥١.

(٢٩) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٧٣، وعلم الدلالة السلوكيّ: د. مجيد الماشطة: ٤١.

(٣٠) ظ: النحو العربيّ والدرس الحديث ، بحث في المنهج: ٣٩.

(٣١) ظ: Bloomfeld Language P23 نقلاً عن كتاب: وصف اللغة العربيّة دلاليّاً: ٩٧، والألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٢٣٥.

(٣٢) ظ: وصف اللغة العربيّة دلاليّاً: ٩٧، والألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٢٣٥،

(٣٣) ظ: Bloomfeld Language P:142 نقلاً عن كتاب: وصف اللغة العربيّة دلاليّاً: ٩٧.

(٣٤) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٧٣، ٧٤، وعلم الدلالة السلوكيّ: ٤٤.

(٣٥) ظ: وصف اللغة العربيّة دلاليّاً: ٩٨.

(٣٦) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٧٤.

(٣٧) ظ: قضيّة البنيويّة ، دراسة ونماذج: عبد السلام المسدي: ٢١٤.

(٣٨) ظ: معرفة الآخر: ٣٩، وتطوّر الفكر النقديّ الأدبيّ في العراق: د. بتول قاسم ناصر: ٦٢.

(٣٩) ظ: Jonathan Culier, Structuralist Poeties P:4 نقلاً عن كتاب: معرفة الآخر: ٤٢.

(٤٠) ظ: قضيّة البنيويّة: ٢١٤.

(٤١) ظ: (بحث): حلقة الوصل بين الألسنيّة الحديثة والنحو العربيّ: د. خليل عمايرة: ١٠٢.

(٤٢) ظ: حلقة الوصل بين الألسنيّة الحديثة والنحو العربيّ: ١٠٢.

(٤٣) ظ: حلقة الوصل بين الألسنيّة الحديثة والنحو العربيّ: ١٠٢، والألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٢٥٨.

(٤٤) ظ: حلقة الوصل بين الألسنيّة الحديثة والنحو العربيّ: ١٠٢، والمدخل إلى علم اللغة: كارل – ديتربونتج: ٧٩.

(٤٥) ظ: حلقة الوصل بين الألسنيّة الحديثة والنحو العربيّ: ١٠٣.

(٤٦) ظ: حلقة الوصل بين الألسنيّة الحديثة والنحو العربيّ: ١٠٣، والمدخل إلى علم اللغة: ٩٠.

(٤٧) ظ: حلقة الوصل بين الألسنيّة الحديثة والنحو العربيّ: ١٠٣.

(٤٨) ظ: المصدر السابق: ١٠٤.

(٤٩) ظ: النحو العربيّ والدرس الحديث ، بحث في المنهج: ١٠٩، والمدخل إلى علم اللغة: ٢٠٤.

(٥٠) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٢٠٢، والمدخل إلى علم اللغة: ٢٣٨.

(٥١) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٢٠٦، والمدخل إلى علم اللغة: ٢٣٨.

(٥٢) ظ: الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام: ٢٠٦،والبنى النحويّة: جومسكي: ٥٩.

(٥٣) ظ: اللغة والعقل: جومسكي، ترجمة بيداء علي العلكاوي: ٢١- ٢٣.

(٥٤) ظ: الطبيعة الشكليّة للغة: جومسكيّ، ترجمة: ميشال زكريّا: ٢٥.

(٥٥) ظ: (بحث) حلقة الوصل بين الألسنيّة الحديثة والنحو العربيّ: ١٠٦.

(٥٦) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٥٧) ظ: النقد والدلالة، نحو تحليل سيميائيّ في الأدب: محمد عزّام: ٧.

(٥٨) النقد والدلالة: ٨.

(٥٩) ظ: دليل الناقد الأدبيّ: ١٧٨.

(٦٠) ظ: النقد والدلالة: ٧.

(٦١) ظ: دليل الناقد الأدبيّ: ١٧٨.

(٦٢) ظ: معرفة الآخر: ٨٤.

(٦٣) ظ: مباديء في علم الأدلّة: رولان بارت: ٣٩، ودليل الناقد الأدبي: ١٨١- ١٨٢.

(٦٤) ظ: معرفة الآخر: ٩٩- ١٠٠.

(٦٥) ظ: دليل الناقد الأدبيّ: ١٨٣.

(٦٦) ظ: معرفة الآخر: ١٠١.

(٦٧) ظ: محاضرات في السيمولوجيا: د. محمد السرعيني: ٣٤.

(٦٨) ظ: مدخل إلى السميوطيقا: سيزا قاسم: ٣٩، ٤٣.

قائمة المصادر:

أ- الكتب:

- الألسنيّة (علم اللغة الحديث)، المباديء والأعلام، د. ميشال زكريّا، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.
- البنى النحويّة: نعوم جومسكي، ترجمة: د. يؤيل يوسف عزيز، دار الشؤون الثقافيّةالعامّة، بغداد، ١٩٨٧م.
- البنيويّة، جان ماري أوزياس، ترجمة: ميخائيل مخوّل، دمشق، ١٩٧٢م.
- تطوّر الفكر النقدي الأدبيّ في العراق منذ نشأته في العصر الحديث والى الحرب العالميّة الثانية، د. بتول قاسم ناصر، ط١، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ٢٠٠٤م.
- دليل الناقد الأدبيّ: د. مجيد الرويني، ود. سعدالبازعي، ط٣، المركز الثقافي العربيّ، المغرب، ٢٠٠٢م.
- علم الدلالة السلوكي: د. مجيد الماشطة، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ١٩٨٦م.
- علم اللغة: د. محمود السعران، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
- علم النفس اللغويّ: نوال محمد عطيّة، ط١، نشر: مكتبة الأنجلو المصريّة، ١٩٧٥م.
- في تحليل الخطاب وبعض القضايا التواصليّة من وجهة نظر لسانيّة: د. رضا السويس، الملتقى الثالث في اللسانيّات، تونس، ١٩٨٥م.
- قضيّة البنيويّة، دراسة ونماذج: د. عبد السلام المسدّي، ط١، المطبعة العربيّة، تونس، ١٩٩١م.
- اللغة العربيّة، معناها ومبناها: د. تمام حسّان، ط٢، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٨٤م.

- اللغة في إطارها الاجتماعيّ: مصطفى لطفي، معهد الإنماء العربيّ، ط١، بيروت، ١٩٧٦م.
- اللغة والعقل: نعوم جومسكي، ترجمة: بيداء علي العلكاوي، دار الشؤون الثقافيّة، بغداد، ١٩٩٦م.
- مباديء في علم الادلّة: رولان بارت، رتجمة : محمد البكري، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ١٩٨٦م.
- محاضرات في السيميولوجيا: محمد السرعيني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٨م.
- مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات، إشراف: سيزا قاسم، ونصر حامد أبو زيد، دار الياس العصريّة، ١٩٨٦م.
- المدخل إلى علم اللغة: كارل – ديتربونتج، ترجمة وتعليق: د. سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- معرفة الآخر- مدخل إلى المناهج النقديّة الحديثة: عبد الله إبراهيم وآخرون، المركز الثقافي العالمي.
- النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج: د. عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعة، الاسكندريّة، ١٩٨٨م.
- النقد والدلالة، نحو تمثيل سيميائي للأدب، محمّد عزّام، وزارة الثقافة، دمشق ، ١٩٩٦م.
- وصف اللغة العربيّة دلاليّاً، محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٩٣م.

ب- البحوث:

- التناقض بين المذاهب الألسنيّة الحديثة، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مجلّة نقابة المعلّمين، ع٤، كانون الأوّل، ١٩٨٧م.
- جوانب من النظريّة اللغويّة العربيّة في ضوء الدراسات الحديثة، د. هدى محمد صالح الحديثي، مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، ج١، مج ٤٨، ٢٠٠١م.
- حلقة الوصل بين الألسنيّة الحديثة والنحو العربيّ، د. خليل عمايرة، مجلّة الدارة، ع٤، س١٥، ١٩٩٠م.
- في الدلالة والتطوّر: أحمد محمد قدّور، مجلّة المجمع العلميّ الأردنيّ، ع٣٦، س١٣، ١٩٨٩م.
- مراعاة المخاطب في الأحكام النحويّة في كتاب سيبويه: كريم حسين الخالدي، مجلّة المورد، مج ٣٠، ع٣، ٢٠٠٢م.
- نظريّة السياق (المقام) والموقف الكلاميّ بين اللغويّين العرب والأجانب، أ.د هادي النهر، مجلّة آداب المستنصريّة، ع٢٤، ١٩٩٤م.